إن الفهم على هذا النحو ينطوى على النقد والانتقاء . لقد عبرنا بلفظ الجدل عن النقد ، ويجب علينا أن نحرص على فهم الانتقاء . لقد ساعدتنا الأخطاء التى طال علينا سوء فهمها أو سوء تقديرها إلى تجاهل أثرها فيما نرجوه فى بعض اللحظات . ومن حق الخطأ أن يَدِلَّ علينا لأنه أداة فى تكوين الانتقاء . ومن حق الانتقاء أن يتواضع قليلا لأنه نتاج هذه الأخطاء .

ويظل العقاد مؤمنا بأن الفهم جدل ، فإذا شعرنا أن الجدل هش أو ضعيف كان ذلك آية على خلل فى الفهم . وبعبارة أخرى إن الفهم هو استنقاذ للإنسان من غمار المتشابهات والنكرات . وجدل الفهم هو ما نسميه أحيانا باسم حفظ المزايا أو تخليد النماذج أو تنويع الصفات . فالمزايا أو الصفات لا سبيل إلى استيعابها بمعزل عن الحوار . والمزية ليست خلقا من عدم ، المزية هى حيوية الجدل ذاته ، والنموذج الحى لا يستبعد تماما ما دونه من النماذج . وحين نرى الأشياء الدارجة بلا زيادة ولا تجميل لا يفوتنا أن الرؤية ذاتها ليست من الدارج المألوف .

أريد أن أستأذن القارىء مرة أخرى فأكرر أن العقاد كان يرى الفهم حوارا بين الرفض والقبول ، وأريد أن أستشهد قبل الوقوف بمثل يروقنى ويغرينى بأن أقرأه مرة بعد مرة . وقف العقاد وهو يكتب فى صحيفة يومية عند صورة فتاة حزينة على قبر صديق فقيد . ويتجلى موقف العقاد هنا فى مواضع متعددة لا فى موضع واحد ، فقد حرص على أن ينشر الصورة حتى يشرك القارىء فى المتعة ومتابعة التأملات بطريقة حية .

وحرص العقاد على أن يرفع الصورة من خلال متابعة مزاياها ، وحرص على أن يقلب أذواق الجمهور ، وأن يعبث بهذه الأذواق ، وأن يهذبها ويرشدها . وعندما بلغ العقاد الغاية من التعاطف أو نفاذ الفهم ساءل الفتاة الحزينة إلى أين . إلى القبر فى هذه المسوح وفى هذه الكآبة ، وفى هذا المحيا الوضىء ؟ وخاطبها فقال عليك يابنية سمة الملاحة ، وفيك مرتغب يابنية للراغبين ، ووراءك الدنيا يابنية تفيض بالأفراح والأطماع ، ويتسابق فيها المتسابقون على إرضاء الجميل ، وتضحك لها الرياض عن نضرة الريحان ، وتطلع عليها الكواكب باللمح والابتسام ، وتنشدها الصوادح أناشيد الحب والرجاء . وأنت زينة من زينتها ، تهجرينها كلها ، وتدبرين عنها كلها ، وتقبلين على هذه الحجارة المركومة فوق ذلك الجسد المحطوم ؟ .